دراسة الأفعال الكلاميّة في القرآن الكريم
– مقاربة تداوليّة –

أ. بوڤرومة حكيمة

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

ظهر كتاب "أوستين" (Langshaw AUSTIN) سنة 1962 الموسوم بـ"كيف نُنجز الأفعال بالكلمات" كمؤسّس لنظريّة الأفعال الكلاميّة، ثمّ طوّره "سيرل" (J. SEARLE) ونظّم أفكاره عام 1969 في كتابه الموسوم بـ"أفعال الكلام" « Speech acts ».

لقد جاءت نظريّة أفعال الكلام التداوليّة لتغيّر تلك النظرة التقليديّة للكلام التي كانت تعتمد أساسًا على الاستعمال المعرفي والوصفي للكلام، ونظرت إلى اللغة باعتبارها قوّة فاعلة في الواقع ومؤثّرة فيه، فألغت الحدود القائمة بين الكلام والفعل، فأيّ معلومة حسب (باختين) تقدّم لشخص ما مثارة بواسطة شيء ما، وتسعى إلى تحقيق هدف ما، فهي حلقة ضمن سلسلة التبادل الكلامي الدائر في فلك الحياة العاديّة للناس[1].

لقد شاع استخدام مصطلح الفعل الكلامي بين الدارسين، واختلفت تعريفاته تبعًا لاختلاف المرجعيّات الإبستيمولوجية التي ينطلقون منها، وحسب المتفق عليه فإنّ فعل الكلام يعني لغة ما أو التحدّث بما يعني تحقيق أفعال لغويّة[2]، ومن هنا نحاول دراسة الأفعال الكلاميّة الواردة في الخطاب القرآني من وجهة نظر التداوليّة، وتنقسم إلى قسمين: مباشرة وغير مباشرة.

I – الأفعال الكلاميّة المباشرة:

إنّ جهود "أوستين" و"سيرل" في مجال الأفعال الكلاميّة مهمّة وفعّالة، ولعلّ المبحث الأساسي لأعمالهما التحليليّة هو الأفعال الإنشائيّة المتعلّقة بالصيغة المباشرة، وشروط استعمالها في سياقات الحديث المختلفة، كالسؤال والتقرير، واستعمال مختلف الوسائل التي يتوفّر عليها المتحدّثون لكي يتواصلوا ويبلغوا فعل الكلام إلى المتلقّي.

يستعمل المخاطِب الفعل الكلامي المباشر عندما يولي عنايته لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابي، ورغبته في أن يكلّف المتلقّي بعمل ما، أو يوجهه لمصلحته من جهة وإبعاده

عن الضرر من جهة أخرى، أو توجيهه لفعل مستقبلي معيّن. ويُفترض أن يتجه المخاطِب بخطابه إلى التكثير من فائدة المتلقّي، فيستعمل هذه الإستراتيجيات في شكلها الأكثر مباشرة للدلالة على قصده، كالأمر والنهي الصريحين.

1 – أفعال التكليف والتوجيه:

يُعدّ هذا المبحث جوهر القضيّة الاجتهاديّة في تفسير النصوص، ومسألة مهمّة عند الأصوليّين خاصّة، كمسألة الأمر ودلالته في المواضعة والاستعمال، وهذه الأفعال طلبيّة توجيهيّة تُحسب كمحاولات لتحقيق تأثيرها عبر فعل المستمع كالنداء والأمر والنهي والاستفهام وغيرها.

يعدّ النداء من الأفعال الكلاميّة التوجيهيّة، لأنّه يحفّز المتلقّي لردّ فعل المتكلّم. وأبرز أدواته (الياء)، ويحتلّ كثافة معتبرة في النصّ القرآني نظرًا لارتباطه بالأمر والنهي. فالنداء أوّل فعل كلامي يقوم به المخاطِب ليتمكّن بعد ذلك من تحديد مقاصده. وقد ظهر بأشكال مختلفة ومتفاوتة (يا أيّها الناس، يا أيُّها الذين آمنوا، يا أيُّها النبيّ، يا داود، يا زكريّا، يا عيسى، يا موسى، يا أيّها الإنسان، يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل، يا أيُّها الكافرون...).

يحرص الخطاب القرآني على التنويع في مخاطباته وأساليبه وفق منظور يحرص على بلوغ الفائدة لجميع المخاطَبين، فيستعمل أداة النداء المناسبة، ثمّ يخاطب كلّ منادى حسب طبيعة إيمانه أو مكانته الخاصّة والاجتماعيّة، إذ إنّه مرتبط بمقام التلقّي ومقاييسه «فخطاب الأذكياء غير خطاب الأغبياء، وموضوع العقائد التي يتحمّس لها النّاس غير موضوع القصص، وميدان الجدل الصاخب غير مجلس التعليم الهادئ، ولغة الوعد والتبشير غير لغة الوعيد والإنذار»[3]، وهذا يعود إلى تلك الخصوصيّة التكوينيّة للخطاب القرآني المرتبطة بالقدرة الإلهيّة الإعجازية.

تحقّق آليّة النداء في الخطاب القرآني أغراضًا مختلفة كالإغراء والتحذير والاختصاص والتنبيه والتعجّب والتحسّر، وإنّ حمل كلّ هذه الآليات على بعدها التداولي يعطيها بعدًا ديناميًا يجعل الدراسة التداوليّة مناسبة لطبيعة الخطاب القرآني وبنيته.

لقد كان أوّل نداء في القرآن الكريم (يا أيُّها النّاس)، وهذا دليل على رسالته العالميّة، وتوجهه إلى كلّ الناس. ومن ثمّ يبدأ تخصيص النداء حسب نوع الخطاب الذي يسعى القرآن الكريم إلى تبليغه، فقد بيّن الله تعالى وحدانيّة ألوهيّته بأنّه وحده المعبود، وهو المنعم على

عباده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وتكريمهم ومدّهم بالنعم المختلفة، ومن ثمّ استحقاقه للعبادة وحده دون غيره {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم والّذين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُم تَتَّقُون}[4].

لقد تجاوز القرآن الكريم نداء الإنسان إلى تشخيص الجامد، فنادى السّماء والأرض والنّار وغير ذلك، ليجعل منها كائنات تتحرّك وتستجيب لندائه وأوامره رغبةً وخضوعًا، بناء على القاعدة الإلهيّة المعروفة {إنّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون}[5]. فنادى الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تقلع، والنار أن تكون بردًا وسلامًا، ... لقوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغِيضَ المَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُوديّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين}[6].

لمّا غرق أهلُ الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الله الأرض بأن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السّماء بأن تقلع عن المطر، ثمّ شرع الماء في النقص وقُضي الأمر، وفرغ من أهل الأرض ممّن كفر بالله، فلم يبقَ منهم ديّار، واستوت السفينة بمن فيها على الجوديّ.

لقد كانت أفعال الكلام في هذه الآية بمثابة إنجاز تلفّظي أعطى المأمور بعدًا دلاليًا وأساسيًا لهذا الفعل، ولمّا صار القول فعلاً منجزًا ناداهما الله مرّة أخرى أن تتوقّفا، فقضي الأمر. لقد أدّت الأفعال الكلاميّة في هذه الآية تغييرًا واضحًا في العوالم والأماكن، ممّا أدّى إلى إنجاز الفعل حال إيقاع الكلام.

يعتبر النداء في القرآن الكريم بمثابة مدخل للأفعال الكلاميّة الأخرى التي يأتي بعدها الهدف المقصود مباشرة، فاشتمل ما بعده على أصول التشريع وسياسة الخلق وقواعد الحكم، وآداب المعاملات، ونظم العبادات ودعوة إلى التوحيد. وقد لفت الأنظار إلى قدرة الله البالغة، وعلمه المحيط بكلّ شيء، والبرهان على صدق الرسالة المحمّديّة، وأنّها متمّمة للرسالات السابقة، وتحدّد سلوك الإنسان لجعله يرقى إلى المكانة اللائقة به والتي أرادها الله له.

من هنا نفهم أنّ النداء طلب واستحضار يراد منه إقبال المدعوّ على الداعي ليتمكّن من توجيه ما يريد، ويصحب في ذلك غالبًا الأمر والنهي. فعن ابن مسعود أنّه قال: «إذا سمعت الله يقول: يا أيّها الذين آمنوا، فأوعها سمعك فإنّه خير يُؤمر به، أو شرّ يُنهى عنه»(7).

لقد ترسّخت التداوليّة كدراسة لغويّة تتناول فعل القول، فالنصّ وظيفة يقوم بها المتكلّم بإنجاز فعل كلاميّ أو سلسلة من الأفعال الكلاميّة كالوعد والأمر... [8]، يبيّن من خلالها هدفه في ممارسة الحوار ما دامت الحقيقة مرتبطة بحركة التواصل والمعنى المستهدف[9].

ما يمكن ملاحظته في آيات القرآن الكريم أنّ الأمر لم يرد منفصلاً عن النهي، وإنّما وردا متشابكين ومتداخلين مع بعضهما حتّى صعب الفصل بينهما، وهذا راجع لطبيعة القرآن الكريم المرتبط بالجانب التشريعي ونظام المعاملات والعبادات والعقائد، فكان لا بدّ من الأمر لأداء كلّ الواجبات، وبعدها النهي عن كلّ المحرّمات، ونادرًا جدًا ما جاء أحدهما منفصلاً عن الآخر، فإذا أخذنا المقطوعة التالية في كليتها، سنلاحظ ذلك التشابك الواضح الذي يشمل صيغ الأمر والنهي، وتناوبهما في كلّ مرّة { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ***إخبار بواسطة الوحي*** أَنَ أَرْضِعِيهِ ***أمر*** فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ***شرط*** فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ***جواب شرط*** + ***أمر*** وَلا تَخَافِي ***نهي***، ولا تَحْزَنِي ***نهي*** إِنَّا رَادّوهُ إِلَيْكِ ***بشارة*** وجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ***بشارة***}[10].

إنّ التداول مكفول حتّى في صيغة الوحي والإلهام، باعتبارها درجات في التواصل، وقد تعدّدت المواقف الخطابيّة، كما تعدّدت أفعال الكلام، لكون الأمر في هذه الآيات يدعو أمّ موسى إلى الكيفية التي تفيدها في استمرار حياة ابنها، ثمّ يطمئنها ويزيل قلقها لتثق في الله، خاصّة لما يعلمها بإعادته إليها وجعله من المرسلين، وهذا ما تحقّق بالفعل، إذ نجا موسى من الموت بقدرة الله العجيبة.

والملاحظ أنّ الأمر بإلقائه في اليمّ كان جوابًا لشرط الخوف، حيث تجاوز حدود الطلب ليخرج إلى معنى أشمل هو التدليل على طريق النجاة، وإنّ ختام الآية ببشارتين جعل أمّ موسى كمتلقّية للأوامر والنواهي، مهيّأة لتقبّل كلّ الشروط التي يمليها عليها الوحي، ضمن صيغ طلبيّة نُقلت من مجال الطلب إلى مجال التنفيذ.

ويُعدّ الاستفهام من الآليات التوجيهيّة، بوصفها توجّه المرسل إليه إلى ضرورة الإجابة عنها، فيستعملها المرسل للسيطرة على مجريات الأحداث، والسيطرة على ذهن المرسل إليه وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل. وتعدّ الأسئلة المغلقة من أهمّ الأدوات اللغويّة لإستراتيجيّة التوجيه[11].

فعند استعمال الأداة (هل) كقوله تعالى: {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُه}[12]، وقوله: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَل امْتَلأْتِ فَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ}[13]. إذ ليس القصد

من الآية الأولى أن تُجابَ أخت موسى عن سؤالها بـ"نعم" أو "لا"، وإنّما قصدها أن تبلور الإجابة في عمل فعليّ، فأفادت التوجيه عن طريق الاستفهام، فأعيد موسى إلى حضن أمّه. أمّا في الآية الثانية، فيدخل الاستفهام في باب المجاز، إذ « ليس يومئذٍ قول منه لجهنّم ولا قول من جهنّم وإنّما هي عبارة عن سعتها»[14]، فيؤوّل ابن قتيبة ذلك باعتباره إقرارًا بما ذهب إليه أصحاب المذهب الاعتقادي، كلّ أفعال القول باعتبارها انزياحات في مستوى التداول معهودة عند العرب.

2 – أفعال الأسف والحسرة:

يستعمل المتكلّم في مقامات خاصّة كالرضا والغضب والحزن والنجاح أفعالاً كلاميّة غرضها التعبير عن المشاعر والأحاسيس، وهي كثيرة، منها: الشكر، الاعتذار، التهنئة، المواساة، الندم، الحسرة، الغضب، الشوق... [15].

كما جاء على لسان امرأة عمران وهي تتحسّر على كونها أنجبت أنثى وكانت تتمنّى أن يكون المولود ذكرًا، { فلمّا وضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَم وَإِنّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرّجِيمِ }[16].

فالآية تجمع بين مشاعر الحسرة والأسف، لأنّها تمنّت لو أنجبت ولدًا، وكانت قد نذرته أن يكون « خالصًا مفرغًا للعبادة، ولخدمة بيت المقدس»[17]. ذلك أنّ النذر للمعابد لم يكن معروفًا إلا للذكور، ولهذا توجّهت إلى ربّها في نغمة آسفة على كون المولود ليس ذكرًا ينهض بالمهمّة التي كانت قد نذرته لها. كما نلمح في حديثها شكل المناجاة الرتيبة التي يشعر صاحبها أنّه منفرد بربّه يحدّثه بما في نفسه حديثًا مباشرًا. والمناجاة «شكل من أشكال الخطاب الدعائي ذات الاتجاه الواحد من أنا إلى أنت (الله)»[18]. فيتحوّل الحدث من أسف وحسرة إلى مناجاة متوجّة بالاستجابة والتقبّل، لقوله تعالى: { فَتَقَبَّلَهَا ربُّهَا بِقَبُولٍ حَسَن وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }[19]. لقد استجاب الله لها جزاء إخلاصها وتجرّدها الكامل في النّذر، وجعل النبيّ زكريا يكفلها، فنشأت مباركة يرزقها الله فيضًا من رزقه بغير حساب.

يجمع مشهد "صاحب الجنتين" في (سورة الكهف) بين الحسرة والندم، في قوله تعالى: {وَأُحيطَ بِثمرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فيها وَهيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي

لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّي أَحَدًا}[20]. إذ نجد في القصّة تعمّق المبدأ الحواري وتغلغله بين آياتها، لأنّها عبارة عن مقابلة بين طرفين متناقضين: طرفٍ فقير معتزّ بإيمانه، وطرفٍ غنيّ مغرور بمكتسباته، ومن ثمّ ينشأ الحوار الوارد بين ثنايا القصّة، والخاضع لذبذبات متنوّعة ومختلفة حسب طبيعة الحوار نفسه الذي انتقل من التعبير عن حالة الزهو والفرح إلى التعبير عن حالة الأسى والحسرة، فتنتهي أحداث القصّة بوصف مشهدي يغلب عليه النفس التفجعي الذي يسير على نحو متدفّق، فتطغى المصطلحات المأخوذة من معجم الدمار من جهة، ومن معجم الحسرة والأسف من جهة أخرى. وتلتحم هذه المصطلحات في القصّة لتخلق عالمًا متناقضًا يتمثّل في مشهد الجنّتين المحفوفتين بكلّ الخيرات ومشهد الدّمار والخراب الذي آلت إليه في النهاية، فتعود بنا القصّة إلى حيث الجزاء المنتظر لكلّ منكر ومتكبّر، وبتداوليّة مباشرة وسريعة يتحقّق الجزاء المتمثّل في الخراب والدمار الذي يجسّده مشهد نهاية القصّة.

3 – أفعال الوعد والوعيد:

يلتزم المخاطِب بفعل شيء تجاه المخاطَب طوعًا، وتمثّله أفعال الوعد والوعيد والضمان والإنذار، وهي كثيرة في الخطاب القرآني، والفرق بينها وبين الأفعال الطلبيّة كونها متجهة نحو المتكلّم، بينما تتجه الأفعال الالتزاميّة نحو المخاطب[21].

يصنّف الشاطبي بعض الخطابات على أنّها أوامر غير صريحة، فمنها ما جاء على شكل أخبار، ومنها ما جاء على شكل مدح للفاعل في الأوامر، والعقاب في النواهي، وهذه الأمور دالّة على طلب الفعل في الأمور المحمودة، وطلب التّرك في الأمور المذمومة[22].

فذكر العواقب من الآليات المباشرة والصريحة التي يوجّهها المرسل إلى المرسل إليه وفق مجموعة من الأوامر والنواهي، تختم بإظهار العاقبة في الأخير، أو ما يسمّى بالجزاء في القرآن الكريم، الذي ارتبط أساسًا بالوعد والوعيد، وهذا يناسب السياق الذي وردت فيه الآيات المرتبطة بأداء الواجبات وترك المحرّمات، كما في قوله تعالى: { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى، وَمَن أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى}[23]. فقد ارتبط الضلال والشقاء باتباع هدى الله أو عدمه، لذلك كانت (مَنْ) أداةَ شرط لمن اتبع هدى الله ومن أعرض عن ذكره، وكانت (الفاء) جوابَ الشرط بعدم الضلال

والشقاء، بالنسبة لمتبع الهدى، والمعيشة الضنكا لمن أعرض عن ذكر الله. إذن فالشرط في هذه الآيات يمثّل أوامر ونواهي مقترنة بالجزاء في الدنيا والآخرة.

وقد تكرّرت صور الزجر والوعيد في القرآن الكريم، وصور بسط الموعظة وتثبيت الحجّة بطريقة تفيد تقرير الحقائق، {وَكَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُم ذِكْرًا}[24]. والوعيد في القرآن يتنوّع تنوّعًا عجيبًا حسب اختلاف طبيعة النفوس واختلاف البيئات، فالعامّة من النّاس الذين يكتفون من الحياة بظاهرها وسطحها يغلب على وعيدهم التخويف بالعقاب الجسدي كعذاب جهنّم ولهيبها، أمّا الخاصّة كالسادة وذوي الزعامة، فإنّ وعيدهم يتميّز بطابع الإذلال والإهانة[25].

فالوعيد في أسلوب القرآن الكريم يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول، وله مقاصد تتمثّل في التأثير على أفكار المتلقّي وأفعاله، وجعله يخضع لأوامر الله ونواهيه.

كما يمكن الإشارة إلى الأداة (لو) إحدى أدوات الشرط التي عبّر القرآن من خلالها عن وعيده، فتعبير "لو ترى" «يأتي في مقام التهويل وإبراز البشاعة ضمنيًا وليس صراحة، ومع ذلك فإنّ التضمين يُراد به زيادة التهويل بأكثر ممّا يدلّ عليه التصريح»[26]. فـ(لو) من أدوات الشرط التي لها فعل شرط وجواب شرط، وحين يصرّح بجواب الشرط، يستطيع المتلقّي أن يستوعب صورته، ولكن أحيانًا يحدث حذف جواب الشرط، فيقترن لفظ (ترى) بلفظ (لو)، فتصبح (لو ترى) ويبقى الشرط وملابساته ليدلّ على الجواب، فيكون التعبير حينئذٍ دالاً على التهويل وتكبير المشهد، وهذا الأسلوب لا يكون إلا لأعداء الله[27].

والقرآن يصوّر مشاهد للوعيد يحذف فيها جواب (لو) ليترك فيها مجالاً فسيحًا لخيال القارئ الذي يتخيّل ما يشاء، وهذا هو المعنى الذي تحدّث عنه "أيزر"، أي « بناء للنصّ في وعي القارئ»[28]. وهو لا يكتسب سمة السيرورة التي تميّزه في خصوصيّته إلا أثناء القراءة، إذ ينتقل مركز الاهتمام من النصّ في مكوّناته وبنياته وتقنياته، ومن القارئ بفعل القراءة، بوصفه نشاطًا عمليًا، وباعتباره سيرورة ترفد علاقة التفاعل بين النصّ والقارئ، والتي تنتهي إلى بناء المعنى في ذهن القارئ.

وقد تنوّع كذلك وعد الله للمؤمنين، فأفاض القرآن في ما يبدو موجهًا إلى العامّة من المؤمنين من وصف الطّعام وصنوف الشراب، وأنواع اللباس لأهل الجنّة، وكلّ ما يبدو موجّهًا إلى الخاصّة من المؤمنين من نعيم معنوي مطلق التحديد، كقوله تعالى: {وَلَسَوْفَ

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}[29]. فالعطاء هنا مطلق من كلّ ما يتمنّاه حتّى تطيب نفسه وتقرّ عينه بتعبير (فَتَرْضَى)، لأنّ الرّضى النفسي هو السعادة الكاملة، فقد أطلق العطاء دون تحديد لتتخيّل فيه النفس كما تشاء، وهو واضح أيضًا في قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُم وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ}[30]. فالأجر عظيم ولكنّه غير محدّد النوع، وعدم تحديده يشعر به وبقيمته الخاصّة من المؤمنين وليس العامّة.

وهذا ما أشار إليه (إنغاردن) بما يسمّى بـ"مواقع اللاتحديد" التي ينبغي ملؤها أثناء القراءة من أجل تحقيق الوحدة العضوية الغائبة، وتتمّ من خلالها عمليّة بناء المعنى الذي يقصد إليه النصّ، وتبقى هذه التحقيقات مشروطة بمكوّنات البنية النصيّة والتأثيرات التي تمارسها هذه الأخيرة على النصّ[31]. فالقرآن لا يحدّد هذا النعيم والأجر، وإنّما يجعله مطلقًا ليقوم المتلقّي بمجموعة من الإجراءات التي تستظهر تلك المحذوفات، حتّى يتمكّن من تصوّر كلّ العناصر غير المذكورة ليكون النصّ في وضع تواصليّ، ومن ثمّ بناء المعنى الذي يكون خلاصة لتلك الإجراءات.

لقد تعدّدت أفعال الكلام المباشرة وتعدّدت المواقف الخطابيّة وتداخلت الأفعال فيما بينها، وفرضت ذاتها على المخاطَب عبر كامل صفحات النصّ القرآني. وقد سيطر فيه ضمير المخاطِب الذي يملك السلطة في الأمر والنهي، نظرًا لامتلاكه سلطة الاستعلاء على المأمور، وامتلاكه الآليات والأساليب الكافية للتوجيه الخطابي والتأثير في المتلقّي، وهنا نشأت أفعال كلاميّة أخرى تلفّظ بها أشخاص آخرون، وقاموا بوظائف خطابيّة كان لها الدور البارز في تشكيل دورة التخاطب.

II – الأفعال الكلاميّة غير المباشرة:

يستطيع المرسل أن يعبّر عن قصده وفق شكل اللغة الدلالي مباشرة بما يتطابق مع معنى الخطاب ظاهريًا، وقد يعدل عن ذلك فيلمّح بالقصد عبر مفهوم الخطاب المناسب للسياق، لينتج عنه دلالة يستلزمها الخطاب ويفهمها المرسل إليه، وهذا يؤدّي بنا إلى نتيجة مهمّة هي مركزيّة السياق في منح الخطاب دلالته للتعبير عن القصد[32]، وهذا يعني أنّ للخطاب معنى مباشرًا له قوّة إنجازيّة حرفيّة تدلّ عليه ألفاظه حسب ما تمّ التواضع عليه في اللغة، غير أنّه قد يمنح السياق للخطاب أكثر من قصد «فلم يعد الإخبار هو القصد الوحيد عند المرسل، وإن عددناه واحدًا من مقاصده، فليس القصد الرئيس، إذ يختبئ وراءه قصد آخر، اختار المرسل الإستراتيجيّة التلميحيّة للدلالة عليه، وهو إمّا الرفض أو التهكّم، ولذلك لم يستعمل المرسل صيغة الخطاب المباشر»[33].

إنّ الأفعال الكلاميّة غير المباشرة يحدّد معناها بتفسيرها الظاهريّ، أمّا قوّتها فتحدّد بالتحقيق غير المباشر، وقد فسّرت هذه المسألة باللطافة والتأدّب، بوصفه سببًا أساسيًا باطنيًا لاستخدام الأسلوب غير المباشر، فهو قدرة يمتلكها المتكلّم والمستمع معًا، كما أوضح "سيرل" و"جرايس"، بينما اعتبره "ليتش" مستوًى سطحيًا يتعلّق مباشرة بالعادات والطبائع المتعارف عليها، كما اعتبرت عند الآخرين استجابة لدواعٍ سياقية تجعل المرسل يعدل عن استعمال الخطاب المباشر بدوافع معيّنة كالسلطة أو مراعاة للتأدّب، ومن هنا نصل إلى أنّ الفعل الكلامي غير المباشر يتمثّل في تلك الأقوال الخارجة في دلالتها عن مقتضى الظاهر، وهي أفعال سياقية لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن اللسانيّة والحالية وأضرب الاستدلال العقلي.

1 – بعثة الرسل وأسلوب الالتماس:

يستعمل المرسل أسلوب التأدّب مراعاة لما تقتضيه بعض الأبعاد. فالبعد الشرعي يُملي ضرورة اطراح فاحش القول، والبعد الاجتماعي يستدعي ضرورة احترام أذواق النّاس وأسماعهم، أمّا البعد الذاتي، فهو صيانة الذّات عن التلفظ بما يسيء إليها[34]. ويؤكّد "سيرل" أنّ التأدّب من أبرز الدّوافع لاستعمال الإستراتيجيّة غير المباشرة في الطلب. وقد استعمل هذا النوع في القرآن الكريم في مجال بعثة الرسل إلى أقوامهم، وقد أمروا باستعمال أسلوب التأدّب والالتماس، حتّى ترقّ قلوب المدعوّين ويستجيبون لدعوتهم، كما هو الحال عند

إرسال موسى إلى فرعون في قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَى رَبُّهُ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}[35].

تبدأ الآيات باستفهام للتمهيد وإعداد النّفس لتلقّي القصّة، فتبدأ أحداثُها بنداء موسى ومناجاته، وهو بالواد المقدّس، ثمّ يبدأ التكليف الإلهي له، فيرسله إلى فرعون الطّاغي، فيعلّمه كيف يخاطب الطّاغية بأحبّ أسلوب وأشدّه جاذبيّة للقلوب لعلّه ينتهي عن طغيانه، ليقول له: هل لك أن تتطهّر من هذا الطغيان، هل لك أن أعرّفك بطريق الله؟

لقد بعث الله نبيّه موسى إلى فرعون وعلّمه الأسلوب المتأدب الذي يتّخذ الأولوية في المجال الدعوي الذي يجعل من غير المناسب أن يتوجّه إليه بشكل مباشر ليأمره وينهاه مباشرة، ولهذا التزم السياق القرآني هذا الأسلوب لإنجاز الأفعال الواجبة، ومن ثمّ يأتي مشهد المواجهة والتبليغ مختصرًا {فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولَى إِنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى}[36].

ورغم استعمال هذا الأسلوب المتأدّب المحبّب، إلا أنّه لم يفلح في إلانة القلب الطاغي، فأراه موسى الآية الكبرى التي تعني «آية العصا واليد البيضاء كما جاء في المواضع الأخرى»[37]، فكذّب وعصى، لينتهي مشهد التبليغ بالتكذيب والمعصية وعدم الاستجابة للحقّ، فيجمع فرعون سَحَرَته للمباراة بين السحر والحقّ، لتنطلق منه الكلمة الطاغية المغرورة: {أَنَا ربُّكُمُ الأَعْلَى}، فيأخذه الله نكال الآخرة والأولى، «ويقدّم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى، لأنّه أشدّ وأبقى»[38]، وهو النكال الحقيقي والأنسب في هذا السياق الذي يتحدّث عن الآخرة ويجعلها الموضوع الأساسي، ويتسق لفظيًا مع الإيقاع الموسيقي في أواخر الآيات.

2 – خروج الأفعال اللغوية عن حقيقتها:

ينجز المرسل أفعالاً لغوية غير مباشرة باستعمال أفعال لغويّة أخرى لتدلّ على معنى آخر غير الذي وجدت له في حقيقتها، فتتولّد عنها معانٍ أصليّة وترد في سياقات تناسب المقام، ويكون ذلك بواسطة ما يسمّى بـ"قرائن الحال"[39]، إذ تخترق أحد شروط إجراء المعنى الأصلي فيمتنع إجراؤه، ويتولّد معنى آخر يناسب المقام.

ويمكن الإشارة إلى دور المتكلّم في القرآن على مستوى التركيب الخاصّ به، حيث يمكن أن تنتقل دلالة التركيب كلّها من مستوى إلى آخر، فيتحوّل الأمر مثلاً إلى تهديد، كما جاء في قوله تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُم في الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُم وَمَا يَعِدُهُم الشَّيْطَانُ إلا غُرُورًا}[40]، حيث تحوّلت صيغة الأمر من معناها الوضعيّ إلى معنى مجازي هو "التّهديد"، ذلك أنّ المتكلّم (الله) لا يمكن أن يقصد أمر الشيطان بغواية البشر، وهو يتنزّه عن الأمر بفعل القبيح.

وهناك تحوّلات يقصد إليها المتكلّم في الأفعال الكلاميّة ببعض الأدوات والأساليب، كما يحدث في حالة الاستفهام إذا تضمّن معنًى آخر، كالتعجّب مثلاً، فإنّه يحمل معنى الخبر، إذ لمّا يدخل التعجّب على الاستفهام، يعيده إلى أصله من الخبريّة، كقوله تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُم مَّن يهْدِي إِلَى الحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّي إِلا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[41].

فالآية تحمل تعجّبًا على شكل استفهام، والعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه[42]، ولا يوصف الله تعالى بالتعجّب لأنّه استعظام يصحبه الجهل، وهو تعالى منزّهٌ عن ذلك، وإنّما المرادُ تعجيب العباد من مذهبهم الفاسد. فالغاية من هذا التعجيب أن يعود المخاطَب إلى صوابه إن كان منكرًا، وأن يحاسب نفسه ليشعر بالضلال الذي هو فيه، وهذا دليل على قدرة الأسلوب القرآني على استيعاب المعاني وتنويعها، وبلاغة إقناعه في توصيلها إلى المتلقّي، فقصد المتلقّي واضح رغم طبيعة الاستفهام التي جاءت عليها الآية في (الهمزة) و(هل).

3 – الاستلزام الحواري:

يستعمل المتكلّم آلية لا يرتبط فيها اللفظ والقصد برابط لغوي، وإنّما يرتبط ببيان القصد على إسهام عناصر السياق الموظّفة، فالمتلقّي لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن وأضرُب الاستدلال العقلي، كأن يرد المخاطب على السائل ردًا لا يصلح حرفيًا أن يكون جوابًا عمّا سُئل، فيكون بواسطة القرائن قد أجاب عمّا سُئل عنه في مقام التعريض، وهو المصطلح عليه بالاستلزام الحواري[43]، ويشمل الكناية والتلميح والسائل بغير ما يطلب كما حدث عند سؤال النّاس عن الأهلّة في القرآن الكريم.

والتعريض من الآليات الإستراتيجيّة التلميحيّة المستعملة عند العرب بكثرة في خطاباتهم، فقد اعتبر من علامات الكفاءة التداوليّة عند المرسل، ودليلاً على النبوغ الخطابي، يستعمل لغايات معيّنة ومقاصد متنوّعة ومراعاة لما يتطلّبه السياق.

ومن أمثلته في القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى: { قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ }[44]. فقد رأت الفتاة من موسى القوّة والأمانة، فأشارت على أبيها باستِئجاره لرعي الغنم، وهذا ما رأته منه لما كان الرعاء يسقون، فاستمهلهم وسقى لها ولأختها، وببساطة فهم أبوها قصدها، فعرض إحدى ابنتيه من غير تحديد، { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ }[45].

لقد تكلّمت الفتاة بخطاب يستلزم أنّها معجبة بهذا الرجل، وقد فهم أبوها أنّها تقصد شيئًا آخر وحدّثته من باب آخر، فلمّا منعها الحياء من التصريح لجأت إلى التلميح بالتعريض عوضًا عنه، وبما أنّه لا يربط بين لفظ التعريض وقصد المتكلّم أيّ روابط لغويّة، فقد فهم الأب قصد ابنته، فعرض على موسى تزويجه إحدى ابنتيه، وقد تيسّر التعامل الخطابي بين الأطراف المتحاورة، ذلك أنّ المتكلّم يستعمل التعريض في خطابه متى كان واثقًا أنّ المتلقّي يفهم قصده، وفي حالة ما إذا لم يفهم قصده، فسوف يضطرّ إلى التصريح به لفظًا، أو باستعمال علامات غير لغويّة، حتّى يتفطّن المتلقّي إلى قصد المتكلّم.

4 – خطاب التهكّم:

يستعمل المتكلّم تقنية التهكّم باعتبارها إحدى الإستراتيجيّات غير المباشرة، وهي تستلزم قصدًا غير ما يدلّ عليه الخطاب بمعناه الحرفي، وتعني عند علماء البيان «إخراج الكلام على ضدّ مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب»[46]. وقد أشار الزركشي في كتاب "البرهان في علوم القرآن" إلى آليّة التهكّم كخطاب يحفل به النصّ القرآني، وعرّفه بقوله: «هو الاستهزاء بالمخاطب، مأخوذ من "تهكّم البئر" إذا تهدّمت»[47].

ومن ألفاظ التهكّم التي يشتهر بها القرآن الكريم، استخدامه لكلمة (نُزل) في غير موضعها، كقوله: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ}[48]، وقوله: {هذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدّينِ}[49]. فقد تواترت لفظة (نزل) في آيات عدّة من القرآن الكريم، وجاءت غالبًا

مقترنة بمأوى الكفّار يوم الآخرة، تحمل تهكّمًا وسخرية مريرة، ذلك أنّ « النُّزُل لغة: هو الذي يقدّم للنازل تكرمة له قبل حضور الضيافة»[50].

ففي هذه الآيات موضع تهكّمي يتمثّل في جعل نار جهنّم مأوى ونزلاً للكافرين، وإن قصد المتكلّم واضح بالنسبة للمتلقّي رغم كونه غير مباشر، ذلك أنّ موضع الكفّار في نار جهنّم يتناقض مع ما يقدّم للنازل من حسن الضيافة، فجاءت الآيات بطريقة ساخرة مُرّة استعملت بقصد مضادّ لمعناها تمامًا.

ومن بين الأوجه التي ترد عليها تقنيّة التهكّم، أن يرد الفعل المضارع مع (رُبّما) أو أن تسبقه (قد) للدلالة على التقليل رغم قدرة المرسل على تنفيذ مقتضى خطابه، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوّقينَ منْكُم وَالقَائِلِين لإخْوَانِهِم هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ البأْسَ إلا قَلِيلا}[51].

فالآية تقرّر علم الله المؤكّد بالمعوّقين الذين يسعون إلى خذلان المسلمين، فيدعون إخوانهم إلى القعود، فلا يشهدون الجهاد، وذلك يعلمه الله رغم استخدام (قد) قبل المضارع، ولكنّها لا تدلّ على التقليل، وإنّما على التحقيق كما لو ارتبطت بالماضي، إنّما جاءت بهذه الصيغة دلالة على السخرية والتهكّم من أولئك القاعدين الذين يظنّون أنّ الله لا يعلم قعودهم، فالله لا تخفى عليه خافية {يَعْلَمُ مَا يُسِرّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور}(52).

فقد اتضح قصد المرسل في هذا الخطاب التهكّمي منذ البداية، إذ عبّرت الآيات عن موقف القاعدين ووصفت الأحداث المحيطة بكلّ أطراف الخطاب، والآيات نقد تهكّمي لأفعال القاعدين، ويظهر ذلك خاصّة حين يصفهم القرآن بالجبن، وهم على صورة مضحكة مثيرة للسخرية، التي هي شكل من أشكال النقد التهكّمي الذي يهدف إلى السخرية من أصناف معيّنين من النّاس لما يمتازون به من صفات ذميمة.

لقد تجاوزت الأفعال الكلاميّة في القرآن الكريم صيغتها المباشرة إلى معنى غير مباشر، وذلك في سياق الإشارة إلى إمكانيّة مخالفة ظاهر اللفظ لمراد المتكلّم، فتتحوّل الأفعال الكلاميّة بوجود جملة من القرائن المقالية والمقاميّة يختارها المرسل لتحقيق قصد معيّن. وقد ارتبط الوضع بالقصد في أسلوب القرآن الكريم، ممّا أدّى إلى كثرة تلك الأفعال التي تخرج عن حقيقتها وتتجاوز ظاهرها إلى مقاصد أخرى يرمي القرآن الكريم إلى تحقيقها.

الهوامش:

1. Voir : M. BAKHTINE, Esthétique de la création verbale, Galimard, Paris, p 29.
2. يُنظر: نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانيّة عربيّة للأفعال الكلامية، قراءة استكشافيّة للتفكير التداولي في المدوّنة اللسانيّة التراثيّة"، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع 17، 2006، ص 169.
3. عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2001، ج 1، ص 188.
4. سورة البقرة، الآية 21.
5. سورة يس، الآية 82.
6. سورة هود، الآية 44.
7. أحمد محمد فارس، النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1409 هـ – 1989م، ص 135.
8. يُنظر: خوسيه إيفا نكوس، نظرية اللغة الأدبيّة، ترجمة: حامد أبو حمد، مكتبة غريب، مصر، (د.ت)، ص 88.
9. يُنظر: م ن، ص 5.
10. سورة القصص، الآية 9.
11. يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيّات الخطاب، مقاربة لغوية تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2004م، ص 324.
12. سورة طه، الآية 40.
13. سورة ق، الآية 30.
14. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ترجمة: السيد أحمد صقر، المكتبة العلميّة، ط 2، د ت، ص 108.
15. يُنظر: نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانيّة عربيّة للأفعال الكلاميّة، قراءة استكشافيّة للتفكير التداولي في المدوّنة اللسانيّة التراثيّة"، مجلّة اللغة والأدب، ع 17، ص ص 197–198.
16. سورة آل عمران، الآية 36.
17. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1423 هـ–2002م، ج 1، ص 555.
18. آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقديّة المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2002، ص 94.
19. سورة آل عمران، الآية 37.
20. سورة الكهف، الآية 42.
21. يُنظر: نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانيّة عربيّة للأفعال الكلاميّة، قراءة استكشافيّة للتفكير التداولي في المدوّنة اللسانيّة التراثيّة"، مجلّة اللغة والأدب، ع 17، ص 197.
22. يُنظر: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد اللخمي الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تخريج وضبط: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ج 3، ط 3، 1417 هـ–1997م، ص ص 142–143.
23. سورة طه، الآيتان: 123 و 124.
24. سورة طه، الآية 113.

25.25 – يُنظر: عبد الحليم حفني، أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 1420 هـ-2000م، ص 3.

26.م ن، ص 272.

27.يُنظر: م ن، ص ن.

28. Wolfgang ISER, L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique, Margada éditeur, Bruxelles, 1985, p 49.

29.سورة الضحى، الآية 5.

30.سورة آل عمران، الآية 172.

31.يُنظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريّات القراءة، دراسة تحليليّة نقديّة في النظريّات الغربيّة الحديثة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 1428 هـ-2007م، ص ص 126-127.

32.يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، ص ص 367.

33.يُنظر: م ن، ص 368.

34.يُنظر: م ن، ص 372.

35.سورة النازعات، الآيات من 15 إلى 19.

36.سورة النازعات، الآيات من 20 إلى 26.

37.سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ج 6، ط 34، 1425 هـ-2004م، ص 3815.

38.م ن، ص ن.

39.يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، ص 389.

40.سورة الإسراء، الآية 64.

41.سورة يونس، الآية 35.

42.يُنظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ج1، 1969، ص 154.

43.يُنظر: نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانيّة عربيّة للأفعال الكلاميّة، قراءة استكشافيّة للتفكير التداولي في المدوّنة اللسانيّة التراثيّة"، مجلّة اللغة والأدب، ع 17، ص 199.

44.سورة القصص، الآية 26.

45.سورة القصص، الآية 27.

46.يحي بن حمزة العلوي، كتاب الطراز، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1415 هـ-1995م، ص 476.

47.بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ج 2، ط 2، 1391 هـ-1972م، ص 231.

48.سورة الواقعة، الآيات: 92، 93، 94.

49.سورة الكهف، الآية 102.

50.الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 232.

51.سورة الأحزاب، الآية 18.

52.سورة هود، الآية 5.